هانس كرستيان أندرسون ... ساحر الكبار والصغار

شاكر الانباري

اعلنت دار (المدى) عن قرب اصدار مجموعة من قصص الكاتب المشهور هانس كرستيان اندرسون بمناسبة مرور مئتي سنة على ولادته. ترجمت المجموعة الكاتبة العراقية دنى طالب، وهي قاصة وروائية تتقن اللغة الدانماركية. وخصوصية هذه الترجمة للثقافة العربية تتأتى من كون المترجمة تعيش في الدانمارك منذ خمس عشرة سنة، ونقلت القصص عن اللغة الدانماركية مباشرة الى العربية، ولأنها متشبعة بالحياة اليومية والذائقة والاحاسيس ومعاني اللغة، استطاعت ان تحمل النصوص خلفيات الروح الدانماركية والآيات الذهنية الشعبية وتفاصيل البيئة من اشجار وطعام وحيوانات واسماك متوارثة.

فالثقافة الاسكندنافية ليست معروفة جيدا لدى القارئ العربي، رغم ان اندرسون معروف ككاتب للاطفال، وهو ليس كذلك فقط، اذ ان قصصه تصلح للجميع لما فيها من حكمة، وجمال لغة، وحكايات ساحرة. قبر هانس كرستيان اندرسون يقع وسط كوبنهاغن، في مقبرة ضخمة تشرف على بحيرات العاصمة. الرخامة السوداء كتب على سطحها بحروف مذهبة اسم هذا الكاتب وتاريخ مولده ووفاته. لقد ولد في العام ١٨٠٥ في مدينة اودنسة، التابعة الى جزيرة فون. كتب الشعر والرواية وأدب الرحلات، ومن اشهرها كتاب مصور من دون صور مستوحى من الف ليلة وليلة، وتوفي في عام ١٨٧٥ في العاصمة كوبنهاغن، ويعتقد انه سافر الى بلدان كثيرة، أوربية على وجه الخصوص.

فوق القبر تتراقص اشجار الجوز البري والعفص والصنوبر، وتطير السنونوات التي وردت مرارا في قصصه، وعلى بعد امتار من القبر هناك قبر آخر لشهير دانماركي يتذكره كل شخص قرأ الفلسفة. انه سورن كيركغورد، الفيلسوف الوجودي الذي جن في أخريات ايامه. لعل العرب يذكرون رحالة دانماركيا شهيرا هو نايبور، الذي ساح في الصحراء العربية وكتب عن اليمن وفلسطين ومصر، بعد ان قاد رحلة شيقة الى الشرق. واهتمامات الدانمارك في حياة العرب ليست جديدة، ففي المكتبة الملكية وسط العاصمة، اعداد هائلة من المخطوطات العربية، كما يوجد قسم للغة العربية في جامعة كوبنهاغن. وفي أزمان ماضية كنت اقف بين القبرين، اندرسون وكيركغورد، وذلك حين عشت في كوبنهاغن، لاتأمل الجو المحيط، والحقيبة الطائرة، وغيرها من القصص. كنت احس كما لو انني احدق بقبر واحد من المعارف او الاصدقاء. كانت المقبرة ذات ممرات جميلة، تصطف حولها اشجار وورود. تفصل ما بين الممرات مساحات من الثيل الاخضر المقصوص بعناية فائقة. كثيرا ما كانت المقابر امكنة للتنزه بالنسبة للدانماركيين والاجانب المقيمين هناك، فثمة هدوء عميق يخيم عليها، واشجار الصفصاف تضفي الحزن على السائرين. هانس كرستيان اندرسون سمعنا به كثيرا وقرأنا حكاياته الساحرة، الحكايات التي تدهش الصغار والكبار، وهذا ربما من اصول الفن الكبير الذي يصلح للجميع، ولكل الشعوب، في كل زمان ومكان. كان دائما يذكرني بألف ليلة وليلة، تلك الحكايات التي تقفز على المنطق، وتمحو الحدود بين الواقع والخيال.

اندرسون قرأ الف ليلة وليلة في صباه، وسحره عالم الشرق وخياله المجنح، وهذا ما انعكس واضحا في قصصه. قصصه وان بدت ذات روح اسكندنافية الا انها تحمل بصمات الف ليلة وليلة. تلاقح حضاري لا يمكن انكاره. الديكور القصصي دانماركي، والأسماء والشخصيات والأفكار، لكن روح الفن تتجاوز المحلية بكثير. الاسماء التي وردت في قصصه شائعة اليوم في الدنمارك واسكندنافيا. كلاوس. لارسن. مورغن. يوناس. بنتا. دورتا. ليزا. مارغريت. مثلما بقيت اسماء الورود التي يحتفظ كل بيت بفصيلة منها. مع انها لا تملك رائحة بسبب غياب الشمس وندرة النهارات المشرقة. اخترق اندرسون البحر، وصور عوالمه السفلية، وابتكر عروس البحر، كمخلوق خرافي يشترك مع اساطير الشعوب الأخرى ومنها الشعوب الشرقية.

منطقة الميناء، وهي في شمال كوبنهاغن، يقصدها دائما السياح لرؤية عروس البحر. حين مضينا الى هناك كنا نتصور اننا سنجد نصبا هائلا يطل على بلد السويد، البلد غير البعيد عن كوبنهاغن، اذ لا يفصله عنها سوى خليج ضيق من بحر الشمال. في اذهاننا ان النصب الذي رأيناه في البوستكارات والمجلات السياحية لابد من ان يكون مدهشا، وعملاقا. انه عنوان هذا البلد الصغير الذي لايتجاوز سكانه الخمسة ملايين. المرء حين يمشي على ساحل الميناء يتلفت يمينا ويسارا فلا يرى النصب ذاك. لابد له من ان ينحدر قليلا نحو الشاطئ كي يرى العروس. صخرة عالية قليلا، لونها رمادي يضرب جذرها الموج نهارا وليلا، وعلى الصخرة تتمدد الفتاة الخرافية. الوجه الحالم الذي يحدق بعينين ناعستين الى الأفق الشمالي. وجه رومانسي، وأنف اسكندنافي صغير، وحلم بلقاء ذلك العالم الخفي المغمور بالمياه. اسفل البطن يمتد ذيل الفتاة، ذيل الاسطورة. فالفتاة المستلقية على صخرة الميناء نصفها الأعلى بشر ونصفها الأسفل سمكة، خرجت من بين انامل كاتب الدانمارك هانس كرستيان اندرسون، في قصته الشهيرة عروس البحر، العروس التي عاشت تحت الماء في مملكة الاعماق لتخرج ذات مرة وتشاهد امير البر وتعشقه، بعدها يتصل الحنين بين بر وبحر، بين منطق ولا منطق.

تلك القصة حين قرأتها ذكرتني بحكاية عبد الله البري وعبد الله البحري من الف ليلة وليلة. واندرسن يرى ما وراء المحسوس وصولا الى خلق يوسع افق الحياة. الاساطير الشمالية كثيرة حول البحر والغابات والليالي المظلمة التي تعقد فيها اجتماعات الساحرات وقوى الظلام. ومن يقرأ الخرافات الاسكندنافية وبلدان الشمال يقع على كثير من الحكايات المشابهة عن فقمات تتحول الى بشر، وعن ممالك الماء السفلية، وعن البحارة الغرقى الذين يطوفون اعالي البحار بحثا عن طريق يوصلهم الى بلدانهم. ارض الدانمارك ثلثاها مياه وتتكون من مئات الجزر، بعضها مأهول وبعضها غير مأهول، انها فينيسيا الشمال البعيد. الجزر تتخللها خلجان وبحيرات وممرات مائية. مدينة اودنسة التي ولد فيها هي عاصمة جزيرة فون اصغر جزر الدانمارك، ومن مدنها الرئيسة فايلة. يرى المسافر في هذه البلاد المياه اينما اتجه. هذا البلد خال من شيئين: الانهار والجبال. وبمقدار ما في البلد من مياه وجزر، فيه ايضا من الغابات، غابات لما تزل فيها ذئاب وثعالب وأرانب وخنازير برية، اضافة الى بعض الدببة، ولو ان هذا نادر. يقال ان دببة رؤيت في غابات الشمال، عند مدينة البورغ، في جزيرة يولاند، القريبة من حدود السويد.

في عام ١٩٨٦ انزلني الباص في واحدة من تلك الغابات، وكان البيت الذي نقيم فيه يقع وسط غابة كثيفة. وقتها اقاموا لنا دورة للغة كي نندمج في المجتمع الدانماركي. كان الليل في منتصفه تقريبا، وكان الثلج في كل مكان. البياض مثل تابوت مصمت. الطريق الذي يصل الشارع بذلك البيت يمتد حوالي كيلو متر في الغابة، وكنت وحيدا بين اشجار السنط العالية المعرشة بالثلج. هدوء مطلق يخيم على الطريق، ومن الوحشة خيل لي انني اسمع صوت دب قطبي في الجوار. تبادر الى ذهني وقتها، هانس كرستيان اندرسون. لقد صدقت انني اعيش في واحدة من حكاياته الخرافية، وسينط لي وسط الطريق دب ضخم يلتهمني، او ذئب جائع ينشب في مخالبه. كان عالما سحريا من عوالم الشمال القطبي. ركضت في نفق الثلج وركضت، وحين ابصرت ضو البيت المشع في الظلام الثلجي استرددت وعيي، وايقنت انني وصلت الى بيت الجنية الخيرة التي ستعيدني يوما الى اهلي ووطني. عالم اندرسون هو عالم الطفولة والبراءة والجهل، عالم البحث عن فضاء آخر لممارسة الوجود. كان رأسه مليئا بالجنيات والساحرات والمخلوقات الصغيرة التي تولد من تويجات زهرة او تعيش في مداخن البيوت او وسط تجويف شجرة دلب عملاقة. بابا نويل اسطورة شائعة في الذهنية الاسكندنافية يقال انه يعيش في اعلى المدخنة وهو في كل ميلاد يخرج الى الفضاء ويسرج غزالاته ويلبس طربوشه ليوزع الهدايا على الاطفال اليتامى. هناك فعلا شعب من الاسكيمو في شمال السويد يربون قطعان الغزلان كما نربي نحن في الشرق البقر والغنم والجمال. الأسطورة كما تأملت فيها هي مرآة تعكس ما يفكر فيه شعب من الشعوب. وكان اندرسون مرآة الشعوب الاسكندنافية التي عاشت في الغابات والجزر والبحار، وحياتها لا تنفصل عن العالم السري الذي كانت تجهله. عالم تختلط فيه الطقوس الدينية والوثنية والبيئية الملموسة، وحين تتوافر لكاتب حرية نسج الصورة يخرج من بين يديه أدب حي لا يخص شعبا من الشعوب، انما البشرية كلها، وهذا ما يطلق عليه الأدب العالمي، كل ادب محلي يمكن ان يكون عالميا اذا ما توفرت لديه الحرية والصدق والخيال. المحرمات هي التي تسمر الادب الى محليته، فلا يمتلك القدرة على مخاطبة الشعوب الاخرى.

ويعتبر اندرسون مقدسا لدى الشعب الدانماركي، ينشأ على قراءة قصصه كل جيل يمر في هذه الدنيا، يدرس في الروضات والمدارس والجامعات، طبعت مؤلفاته عشرات المرات، ونادرا ما يوجد بيت يخلو من حكاياته، سواء مصورة ام مطبوعة بغلاف جميل. يعتبر ايضا مفخرة وطنية. انه يشبه المتنبي في الثقافة العربية، رغم حداثة حضوره، ويعد مؤسس النثر الدانماركي الحديث، لما امتازت به قصصه من سلاسة في الجملة والوصف الجميل، اذ تصبح الصفحات ملونة بكلماته الحسية التي تطلق الخيال. ففي قصصه وأفكاره مزاوجة بين الفكر الوثني ضارب الجذور في الذهنية الشعبية، والفكر المسيحي الحديث نسبيا، اذ دخل في القرون المتأخرة الى اسكندنافيا كلها. وهو مشبع بثقافة الفايكنغ الذين احتلوا ذات مرة كل الاراضي المحيطة ببحر الشمال وبحر البلطيق، وبقايا سفنهم الرشيقة تتوزع على اغلب المتاحف. كما ترسو نماذج منها في الموانئ والقنوات، بصواريها وحبالها وقياديمها الرشيقة. وقد استوطن الفايكنغ جزيرة كرينلاند الواقعة في الدائرة القطبية وظلت تابعة للتاج الملكي حتى هذه اللحظة.

ورغم اهمية اندرسون للثقافة الدانماركية وحضوره في الذاكرة الشعبية ككاتب للاطفال والكبار على حد سواء، لكن ما لاحظته هو انهم نادرا ما يزورون قبره. زيارة القبور غير مترسخة في المزاج الدانماركي المعاصر، ربما لانهم يمجدون الحياة ويحتفون بها اكثر من الموت. الحضارة الغربية سادت على الارض كونها تمجد الحياة وتعيش في الحاضر وتجترح حلولا لمشاكله، عكس الثقافات الغيبية والشعوب المسكونة بتلك الثقافات. هذا ما يراه المرء في حب الدانماركيين للهو والمرح والطعام والشراب والجنس والسهر والغناء والرقص. الموت لا يحتفى به كثيرا، وكذلك التفكير بما سيأتي بعده حسب الديانات التوحيدية، والأمر متأت من ضعف التأثير المسيحي، او الديني تحديدا، على الروح الدانماركية، ودخول عهد العلم والتصنيع من اوسع الابواب. مراقص مليئة وكنائس خالية. ليالي الصيف تشهد سهر الناس والرجال على ضفاف البحيرات وفي المراقص والساحات، والتمجيد للأجيال الشابة يفوق تمجيدهم للشيوخ، فبعد ان يتقاعد الفرد يكاد يسقط في غياهب النسيان ولا يلتفت إليه احد حتى المقربون. وقصص اندرسون كتبت في حقبة ما قبل التصنيع، حين كانت اوربا تتلمس طريقها نحو العلم والمعرفة والاكتشافات الكونية. اتجه اندرسون في نثره لا الى الواقع انما الى الخيال، لهذا لانجد في نصه أي شيء يمت الى الاقطاع وكان سائدا في الريف الدانماركي، ولا الى المعامل الصغيرة او الشوارع الغاصة بالعربات المطهمة والصيادين والمغامرين. صاغ عبر لغته الحسية قصورا وبحارا غريبة ومفارقات تناسب الاطفال ولكنها في الوقت ذاته تكتنز بحكمة الكبار. التوفيق بين هذين الجانبين ليس بالامر السهل، فلا بد من توفر البراعة لانجاز ذلك.

يقول اندرسون ان حكاياتي الخرافية هي للكبار كما هي للصغار في الوقت نفسه، اذ الأطفال يفهمون السطحي منها، بينما الناضجون يتعرفون على مقاصدها ويدركون فحواها. وليس هناك الا مقدار من السذاجة فيها، اما المزاح والدعابة فهما ليسا الا ملحا لها. ولعل حكاية ثياب الامبراطور الجديدة افضل نموذج لهذه الازدواجية، أي ان الطفولة احيانا تفضح زيف الكبار ونفاقهم، وتشير الى العري الذي كان عليه الامبراطور، والحكاية اصبحت معروفة وتحولت الى مثل وحكمة. فالامبراطور يتعامل مع نساجين محتالين يوهمانه بانهما سينسجان له ثوبا عجيبا من الحرير والذهب والفضة، لكن ميزة الثوب ان الاغبياء لن يروه. وبما ان المحتالين ينسجان الهواء لذلك لم يشأ احد من الناس سواء العامة ام الوزراء ام الامبراطور الظهور بمظهر الغبي. الطفل هو الوحيد الذي نطق بالحقيقة وهي ان الامبراطور عار. الغريب ان المجتمع الدانماركي المعاصر يمتلك روح المجاملة بشكل كبير، وحوارات البشر فيما بينهم نادرا ما تكون مباشرة وحادة. طبيعة الفرد الدانماركي اليوم تميل الى المهادنة، وحين تطلب من فرد رأيه في عمل ما لا يقول انه سيء، يقول عادة انه جيد لكن ينقصه هذا وذاك.

هكذا اذن، تدور اعماله حول شخصيات بني البشر بجوانبها المضيئة والمظلمة، قدراتهم الايجابية والسلبية، اضافة الى اليات الانتقال من مرحلة الطفولة الى مرحلة النضج. يكتب عن العدالة والظلم، الفقر والغنى، الحلم والواقع، ويدمج بعض الاحيان حكايات كثيرة في حكاية واحدة كما في قصة الحقيبة الطائرة، التي تحول بطلها الى جوال يروي الحكايات بعد ان عشقته ابنة السلطان التركي ذات مرة، لكنه فقد كل شيء ما ان احترقت حقيبته السحرية تلك. صار هانس كرستيان اندرسون معلما من معالم الدانمارك، وكذلك شخصياته، ومنها عروس البحر التي تقف على الشاطئ تحلم بعالم ساحر من عوالم اندرسون الرائعة. وكان السؤال الاول الذي اعتاد الدانماركيون توجيهه لنا، نحن الاجانب، هو: هل قرأتم هانس كرستيان اندرسون؟

شارع دجلة
أوراق من سيرة مبكرة للألم

عبد الخالق كيطان

الى ابي.. تذكارا للايام المرة.. وللغياب.. والناس..

(١٣)

كان قصف اليوم الاول عاصفا بحق، يبدو انهم قرروا منذ اليوم الاول للحرب، اية حرب؟ معاقبة الشعب العراقي بأكمله، كان القصف يشتد لحظة بعد لحظة، ونحن لا نملك سوى ان نتفرج على ما يحدث ليس الا، ويا لها من فرجة، تصور انك ترى الصواريخ في السماء كانها العاب اطفال في الوقت الذي تدرك فيه جيدا بانها ذاهبة لتقتل ابا او اما او اختا او صديقا او حبيبة او عزيزا، السماء تحولت الى ساحة العاب ضخمة جدا، بمعنى لايمكن مجرد تخيلها، ولكن اللون الوحيد المتوفر فيها هذه المرة هو اللون الاحمر فقط، اللون الاحمر كان يبثنا بهجة وموتاً ساحراً، شخصيا لم أكن أتوقع سحريته إلا بعد أن ذهبت إلى (العمارة)، هناك فقط، رأيته، رأيته اولا عندما قتل الرسام أمير الشيخ الذي كان واقفا امام مبنى الاتصالات منتظراً ان يزوره طيف الجمال لكن الصاروخ الذاهب الى المبنى كان الأقرب اليه فأستقبله بالأحضان، هنا عرفت الموت الذي أتحدث عنه، وهو مشهد سيتكرر كثيراً في أيام القصف الطويلة، واللافت انه يتكرر مع أناس اتفق الجميع على محبتهم أو أنهم كانوا في الأقل لا يستحقون موتاً مباغتاً بهذه الطريقة المفجعة. كان واحداً من هؤلاء الذين أتحدث عنهم الآن في طريقه الى من ينجده لإطعام أولاده، وهم كثر (اقصد اولاده)، ولما وصل منتصف جسر العمارة الكبير تقصدته احدى الطائرات فأصبح اشلاء، اخاف ان اذكر المزيد من الأمثلة والقصص فهي تتشابه في براعتها في الموت، ولكن ماذا عن مجالس عزاء هؤلاء، لاشيء، فالناس في تلك الأيام نسيت عاداتها في إكرام الموتى بالدفن وإقامة مراسيم الجنازة بما هو لائق بالمتوفى وما إلى ذلك من طقوس كانت سارية المفعول في حياة العراقيين وتركزت في سنوات الحرب الطويلة مع إيران ولكن سرعان ما تغير الأمر هذه الايام وأصبح التفكير بالذات وإهمال ما سواها أمراً عادياً، كيف لا والموت لم يكن ينتقي او يفرق علاوة على قربه المبالغ فيه من الجميع، فالناس إذن لم تكن بحال موتاها، أنها تائهة بين اللقمة الصعبة، بل النادرة، وبين المحافظة على حياتها بأية وسيلة ممكنة..

لما قتل أخي سلمان، مثلاً، جاؤا بجثمانه ظهراً واحتار الجميع في الاجابة عن اسئلة كثيرة من قبيل: أين سندفنه، وكيف، ومن أين ستتدبر السيارة التي ستنقله؛ ومن سيقودها في حال حصلنا عليها وحصلنا على وقودها، من سيذهب مع الجنازة؟.. اسئلة كثيرة احتار ابي، وهو الكبير في السن، في إيجاد أجوبتها المستحيلة فقرر الإبقاء على الجثمان في بيتنا هذه الليلة ريثما نجد من يفك لنا عقد الأسئلة هذه، وكان العون في اليوم التالي، كالعادة، من اخوالي الذين ما أن وصلهم الخبر حتى سارعوا الى نجدتنا بأن أحضروا (تراكتور وعربانته) وقاموا بنقل الجثمان الى جزيرة نائية شرق العمارة يطلق عليها: جزيرة سيد نور، حيث كان خوالي يعملون (خدماً) في مقامين لسيدين وليين من أولياء الله ومن نسل سيدنا محمد (ص) وهما (السيد نور ابن المبرقع وابن عمه السيد سعدون) ويقيم خوالي عند المقامين، وهناك ايضا كانت ثمة مقبرة قديمة يدفن فيها الناس موتاهم في ما إذا كانت أحوالهم المادية سيئة، وفي المقبرة، التي كان يرقد فيها جدي لأمي، أجمعت العائلة على دفن أخي على سبيل (الأمانة) (لصعوبة الوصول الى مقبرة النجف الأشرف حيث اعتدنا دفن موتانا) وبعد شهور عندما انتهت الحرب قام أبي بنقل الجثمان الى مقبرة النجف الأشرف، قال والدي بأن الجثمان كان محافظاً على طراوته وذلك من بركات أمير المؤمنين (ع) حيث يتوقع الجميع عكس ذلك، خاصة في ظل ظروف مناخية سيئة، وقد أكد من كان مع والدي ذلك وأضافوا بأنها لم تتفسخ ومازالت تحتفظ بسيماء اليوم الأول للوفاة. في تلك الأيام كنت قد رجعت إلى بغداد، وقد عرفت بما حصل من نقل للجثمان فيما بعد..

كنت أتحدث إذن عن معاناة الناس في دفن موتاهم في تلك الظروف القاسية وهي معاناة لا يمكن تصورها اليوم على الإطلاق، فقد كانت الجسور مقطعة والنفوس محطمة والإمكانات اقل من شحيحة، لا سيارات لا طرق لا جسور لا أموال، وباختصار، الناس كانت في صدمة أنستها موتاها.

(١٤)

شخصياً أمضيت أياما لا تنسى لفرط غرابتها عقب وفاة أخي، والسبب يرجع لصبية ريفية كان بيتهم يقع الى الخلف من بيتنا، وتعود مراقبتي لها الى تاريخ أقدم من التاريخ الذي اتحدث عنه الآن، لقد كانت الصبية، وأسمها غير الصحيح الذي أعطتني اياه هو سوسن، من عائلة نزحت الى مدينة العمارة من الأهوار والمناطق المشابهة التي قامت الحكومة بشن حملات تهجير منظمة لهم منذ سنوات، وقد استقرت الكثير من تلك العوائل في الحي العسكري الذي نسكن فيه الآن، ولم تتخل تلك العوائل عن عاداتها القديمة المتوارثة حتى وهي تعيش في المدينة، مثل تربية الماشية والنهوض المبكر جداً من النوم والاعتماد على روث الحيوانات في بعض عمليات الطهي، كما ان ملابسهم تميزهم عن غيرهم، وكانت سوسن كثيرة الحركة، وقد اشتهيتها اكثر من مرة، خاصة وانها تمتلك جسدا انيقا، من جهة، ومن جهة ثانية بسبب قلة تجربتي مع المرأة والتي تدفعني دائماً لتشهي أي امرأة اصادفها، وفي ليلة شتوية قاسية سطا على بيتهم أحد اللصوص، وان كنت أرجح أنه لم يكن لصاً وانما طامع مثلي بنيل جسد الصبية كثيرة الحركة والغنج، المهم ان الصراخ علا في تلك الليلة، وخرجت هي وأبوها يحملان العصي الى الشارع لتعقب اللص المزعوم، وبالطبع فقد خرجنا نحن ايضا وبعض الجيران، وكانت سوسن تهدد وتتوعد، ولأنها خرجت مسرعة من بيتهم فلم تكن ترتدي ملابس ثقيلة تناسب الشتاء مما وفر لي فرصة اخرى للتمتع ببياض بشرتها ولو في مستوى رؤية ضعيف، وقمنا ليلتها باقناعهم بلا جدوى البحث عن اللص في مثل هذا الوقت والجو السيئ، ولكنني انتهزت الفرصة لإظهار رجولتي امام هدى الجميل، والذي بادرني بنظرات اعجاب خاصة!، في مرات أخرى تسنى لي الاقتراب اكثر من جسدها، وخاصة ايام مجلس العزاء البسيط الذي أقمناه لأخي، وبعد تردد كبير من جانبي استطعت ان افاتحها بمشاريعي الغرامية معها، وقد عجبت لأنها وافقت على الفور، وفي يوم تال استطعت اقناعها بالنزول الى بيت غير مكتمل كان يقع لصق بيتنا وأمام بيتهم، ونزلت اليه وأمسكت بجسد أمرأة اخيراً!!، لم أكن أدري ساعتها ماذا افعل، شعرت أن الوقت يمضي بسرعة فائقة، كما ان المكان لم يكن مأموناً، ذلك ان أحد الجيران النازحين ايضاً كان يستخدم هذا البيت لإيواء قطيع أغنامه وخفت ان تفاجئنا الأغنام ونحن في وضع غير شرعي، ومع هذه الهواجس كلها وغيرها استطعت أن أمرر يدي على جسدها وأتنشق رائحة عطرها القروي، مازال فيه شيئاً من رائحة روث الحيوانات، كما لمست أجزاء حساسة من جسدها كانت بالنسبة لي من عالم الاحلام لا اكثر ولا أقل، وانتهت دقائق اللذة بسلام، حاولت أن اعيد الكرة معها ونجحت في المكان ذاته إلا أن المرة الثالثة لم تكتمل لأن أخي الأكبر فيصل شاهدني من خلال ثقوب الحائط وأنا أداعب معبودتي وانتبهت لعينيه فخجلت.. في البيت نهرت كثيراً على جرأتي، كما أن دوامي في الكلية كان قد أزف، فغادرت العمارة متحسراً على ايامي مع سوسن، وعندما كنت اعود الى البيت في العطلات لم تكن تسمح ظروف اجازتي القصيرة بأن التقي بها، وفي واحدة من المرات التي نزلت فيها الى البيت أخبرتني أمي أنهم رحلوا الى مكان قريب ولكني لم التق بها، وفي مرة أخرى قالت لي أمي وهي تعطيني موجزاً عن أخبار الأهل والأصدقاء أن سوسن قد توفيت في حادث بشع..

آه أيتها الصبية اللذيذة، كم كان عسلك ضرورياً لنجاتي.!!

المرات الأخرى التي التقيت فيها نساءً كانت المرأة فيها عاهرة محترفة، هكذا قررت أن أكافح شبقي ما دمت عاجزاً عن اقامة علاقات نسائية طبيعية، فطفت على بيوت الدعارة في بغداد بيتاً بيتاً، ساعدني في ذلك أنني كنت اسكن في منطقة الحيدرخانة الشهيرة ببيوت دعارتها، بل أنني كنت أستطيع الوصول الى ما أريد حتى في أيام المنع التي كانت تسنها الحكومة بين حين وآخر، ووصلت الى بيوت أخرى في الكرادة وفي محلة الذهب وغيرها كثير ولم أكف عن هذه العادة إلا بعد أن صار لي وضع في المجتمع عندما عملت في الصحافة والتلفزيون والمسرح، العجيب أن كلية الفنون الجميلة، حيث كنت طالباً، كان غيري من الطلبة قد حولوا قاعاتها في الطوابق العليا الى أماكن للمتعة المجانية بمشاركة طالبات جميلات وأنيقات إلا أن ذلك ظل ممنوعاً علي لأربع سنوات هي سنوات دراستي في الكلية!!. وبعد أن تخرجت من الكلية وكففت عن زيارة بيوت الدعارة حدثت تطورات كبيرة على المهنة، بسبب الجوع الذي بدأ ينهش اوصال العائلة العراقية، فبالرغم من قرارات المنع الشهيرة تحولت بيوت الدعارة الى أماكن نظيفة وأنيقة تدار من قبل رؤوس كبيرة، أما العاملات فيها فمن طالبات الكليات الجميلات، والزبائن من علية القوم والذين بإمكانهم أن يدفعوا جيدا، حتى تحول الوطن، على غفلة من الزمن، إلى دار بغاء كبرى للمسؤولين وأولادهم ولغير العراقيين الذين يصلون العراق للتضامن مع شعبه ضد الحصار الجائر المفروض عليه. وفي سنوات لاحقة قررت القيادة العراقية قطع رؤوس العاهرات بالسيوف وعلى الملأ فقطعت المئات من الرؤوس الا رؤوس العاهرات والعاهرين أيضاً!

الضب وثقافة العولمة

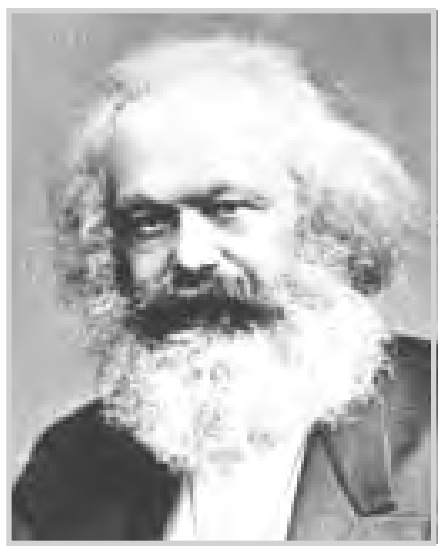

مهدي النجار

بات ضربا من المستحيل او الوهم عدم التأثر بثقافة العولمة، أو استطاعة الشعوب والأمم صنع أسيجة تمنع اختراق خصوصياتها الثقافية، ولا سيما تلك التي تضعضعت وأصاب تاريخها الاحباط نتيجة عوامل القهر الداخلية والخارجية. مازالت التيارات التقليدية والأصولية في الثقافة العربية الأسلامية تراهن على هذه المسألة وتزعم أكتفاءها الذاتي وعدم حاجتها الى احد وإن في جعبتها كل الحلول وكل العلوم، مازالت تؤجل الاعترافات الخطيرة، كمن اخذتهم العزة بالإثم، تحيا بالماضي وتمجده بافراط.

الاعتراف بواقع الحال كما هو فضيلة، الاعتراف في الأقل بأن بيننا وبين الآخر (الغرب) تاريخ بضعة قرون من التخلف، فقد ابتدأ الآخر يخطو على ايقاع الحداثة (ثقافة العولمة) منذ القرن السادس عشر من خلال جملة فتوحات لاهوتية وفلسفية وعلمية، احدث قطيعة مع ثورة لوثر وقطيعة معرفية مع تصورات القرون الوسطى خاصة في مجال علم الفلك مع الثورة الكوبرنيكية التي تجاوزت التصور المغلق والمحدود للكون وللعالم الى التصور المفتوح واللانهائي وإن الأرض ليست إلا كوكباً صغيراً من كواكبه ومجراته التي لا تحصى وليست هي مركز الكون كما توهمت البشرية القديمة طيلة قرون وقرون، وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض، ثم جاء عصر التنوير والحداثة (القرن الثامن عشر والتاسع عشر) الذي فجر قطيعة نوعية جديدة كبرى مع اللاهوت المسيحي والمعرفة القديمة: ديكارت، نيوتن، سبينوزا الى كانط، هيغل، ماركس، نيتشه، فرويد، إينشتاين... الخ أسسوا أنظمة سياسية حديثة، دول الحق والقانون، فصلوا الكنيسة عن الحكم، شرعوا بممارسة الحرية وممارسة الديمقراطية، حولوا التسامح وحقوق الأنسان بمثابة قوانين ملزمة، لم تتوقف وتيرة التقدم العلمي والمعرفي، راح كل شيء يتسارع حتى أزمتنا المعاصرة، منذ الصعود الى القمر سنة (١٩٦١) ومرورا بالاكتشافات العلمية المذهلة، زرع القلوب، زرع الأجنة خارج الرحم، الى الأستنساخ وثورة الجينات والتلاعب بنوعية البشر وثورة الأتصالات المتمثلة بالأنترنيت... الخ.

نحن لسنا بصدد تمجيد أو تحليل ونقد ثقافة العولمة التي يشتغل من خلفها نظام مصرفي هائل ومعقد يتحكم في دورة المال وأسواق المال في اركان الأرض ولديها مخالب مخفاة داخل قفازات من حرير تستظهرها حين تدعو الضرورة وتدوس بأرجلها في كل مرة حقوق الأنسان، وإنما بصدد التساؤل عن العقل العربي الأسلامي الذي ظل محبوساً في دائرة معطيات القرون الوسطى، بعيداً عن كل تلك الفتوحات العلمية والمعرفية والفلسفية كأن الأمر لا يعنيه والحق يقال انه لم يشارك فيها قيد انملة.

انكفأت الثقافة العربية الاسلامية على ذاتها وحاق بها التقهقر والتعطل منذ اندحار العقلانية والأزدهار العلمي والحضاري الذي يؤرخ له بموت ابن رشد في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي (شهدت الثقافة الاسلامية تنويراً بدائياً سبق التنوير الغربي في القرن الثامن عشر بمدة لا تقل عن سبعة قرون) حل محل العقل التنويري المزدهر العقل الالتباسي المقفل، عقل التبجح والتكرار والاجترار، حل عصر الانحطاط الحضاري تحت رعاية المفسدة الأستبدادية (النظم السلالية والشمولية).

الأعسر من ذلك هو ما يضعه كتاب الثقافة المؤدلجة الآن من عوائق امام تفتح العقل وازدهاره من خلال تمحورهم الاجتراري والتوفيقي حول المرجعيات التأسيسية والتراثات، دون أخذ أو عطاء.

يتحدث كتاب الله العظيم ببلاغة فريدة عن البعد الروحي الخلاق للانسان وعن الأسس الاخلاقية للبشر، عن العدل والحب والتسامح والتآلف والعمل الصالح: (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره). يتساءل محمد اركون: ألا يكفي هذا المبدأ الأخلاقي وحده لكي يوجه سلوكك وكل حياتك الشخصية في المجتمع؟! (مع الأسف صنف بعضهم هذه الآية الجليلة ضمن علوم الذرة!).

ان النهوض الثقافي والحفاظ على الهوية والخصوصية يبدأ ساعة تأسيس خطابات نقدية تاريخية للذات وللتراث والتخلص من العناصر الرسوبية داخلهما، عناصر التبجيل المضخمة والصور الالتباسية والتسليمية والوهمية، هذا يحدث من خلال التفاعل والتثاقف مع الآخر عبر جدلية الأخذ والعطاء والنبذ، لا من خلال شيطنته وشتمه وتعليق الاوزار والتردي العام على شماعته. يبدأ ازدهار الثقافات من لحظة أخذها بمبدأ التسامح واحترام العقل لا عن طريق دغدغة الغرائز وتهييج العصبيات من خلال الصخب والبكاء وجلد الذات أو نخرها، وهل ينفع الصخب الذي لا يغير شيئا من الحتميات؟!